مقدمة

الكتابةُ عن الأستاذ الدكتور عبد الوهاب المسيري مهمَّة صعبة من وُجوه عديدة، أولا لأنَّه عالم شديدُ الاتساع والثَّراء حتى أنه يكاد يكون صاحب مشروع متكامل لإعادة تأسيس العلوم الإنسانية وفق رُؤية عربية إسلامية (إنسانية) بعيدا عن تُراثها الضخم الواقع في أسْر المركزية الغربية، أو بتعبير آخر تأسيس «حداثة إسلامية».

وقد كانت الحصيلة إنتاجاً كبيراً يجمع بين الغزارة والعُمق والتنوع: دراساتٌ في الظاهرة الصهيونية وأعمال في النقد الأدبي والأدب الإنجليزي والعلمانية والتحيز ومناهج البحث، وأعمال إبداعية: دووانُ شعرٍ وقصص أطفال و. . . . . .

من ناحية أخرى، فإنَّ الدكتور عبد الوهاب المسيري مشروع ما زال يتحقَّق حتى الآن(*)، وبالتالي فإنَّ الكتابة عنه وعن مشروعه الفكري هي

(*) كُتبت هذه المقدمة قبل وفاة الدكتور عبد الوهاب المسيري بأيام معدودة، وقد فضَّلنا الإبقاء عليها دُون تعديل لأن بعض مؤلفاته لا تزال تنتظر النشر حتى مثول كتابنا للطبع وبالتالي فإنَّ مدلول العبارة يبقى سليماً.

محاولة للإحاطة بنبات ما زال ينمو ويعدُ بالمزيد، والكتابة عن الظواهر وهي لما تزل في حالة تشكُّل وتحوُّل وصيرورة، تنطوي على قدر من المغامرة. كما أنَّ المسيري ـ من زاوية ثالثة ـ مثل اللؤلؤة ذاتُ الأوجه المتعدِّدة، فهو في مرحلة من حياته كان ماركسياً مادياً، وفي مرحلة تالية إسلامياً (إنسانياً)، وهو في مرحلة كان أكاديميا تخصصه الأدب الإنجليزي وهمه الأساسي «التعليم»، ثم استقال للتفرُّغ للكتابة وبشكل أساسي دراسة الظاهرة الصهيونية، وفي الوقت نفسه مُحجماً بشكل طوعي عن العمل العام ليخرج على قرائه مفكراً موسوعياً ربما لم تشهد الثقافة العربية الإسلامية قامة تُطاوله منذ زمن بعيد، لكنه لم يتوقف عن التغير، فأصبح في مرحلة تالية صاحب مساهمات سياسية مهمة.

ورغم أنَّ عبد الوهاب المسيري يُمثل حالة من حالات المراجعة الفكرية، مُماثلة، شهدها الواقع الثقافي المصري خلال سنوات السبعينات والثمانينات بشكل متزامن تقريباً: (المستشار طارق البشري، الراحل الأستاذ عادل حسين رحمه الله، الدكتور محمد عمارة، الراحل الأستاذ محمد جلال كشك رحمه الله، الأستاذ خالد محمد خالد رحمه الله، الأستاذة صافي ناز كاظم.. إلخ..) فإنَّ المسيري ينفرد عن هؤلاء جميعا بأهمية معرفية استثنائية.

فالمراجعة الفكرية في حياة الدكتور عبد الوهاب المسيري، لم تكن ردَّ فعل لنكسة يونيو 1967م التي لعبت دوراً مهما في دفع عدد من المثقفين المصريين لمُراجعة قناعاتهم الفكرية تحت ضغط الفشل العسكري المريع، الذي جعل مشروع مُضاهاة تجربة التنوير الأوروبي محل شكٍّ كبير، وبالتالي اندفع كثيرون للبحث عن أسباب الإخفاق في

عالم القناعات النظرية، لا في عالم الوقائع المباشرة المُتعينة ومنطق الأرقام وموازين القوى.

ولم يدخل المسيري مرحلة المراجعة بحثاً عمَّا يُمكن أن يحرك الشارع ـ كما فعل سياسيون نفعيون نظروا للهوية الإسلامية كورقة رابحة ـ بل دخل هذه المرحلة من باب التساؤلات الكونية والتأمل في قضايا شديدة العُمق، وفي مواجهة أسئلة تبلغ الغاية في التَّركيب والتعقيد.

وممَّا يُضاعف صعوبة الكتابة عن المسيري أيضاً أن كتابته التي تجمع بين الضَّخامة من حيث الكم والعُمق، توالت خلال سنوات قليلة، تبدأ قبل صدور موسوعته «اليهود واليهودية والصهيونية» بقليل، حيث ظلَّ الرجل يُراكم المشروعات ثُم خرج على القارئ خلال هذه السنوات القليلة بعدد كبير من المؤلفات خلال سنوات محدودة، وبالتالي فإنَّ هذه الأعمال لم تأخذ من الوقت ما يكفي لأن تكون موضوع جدل ومحل تقييم وتحليل، بحيث يكون هناك قراءات مختلفة لمشروعه الفكري، وهي صعوبة أَدْركناها بشكل عملي عند شُروعنا في الكتابة.

وقد أثمر المشروع الفكري للمفكر العربي الإسلامي الكبير الدكتور عبد الوهاب المسيري ثمرة أخرى مهمة ومختلفة نوعياً، فالرجل بعد ما يزيد عن رُبع قرن فترة العزلة الصارمة التي فرضها على نفسه طوعياً ليُنجز مشروعه الرئيس موسوعة «اليهود واليهودية والصهيونية» قرَّر أن يخوض غمار العمل السياسي المباشر، أولاً عُضواً مؤسساً في حزب الوسط المصري (تحت التأسيس)، ثم ناشطاً في عدد من الفعاليات السياسية تُوجت باختياره مُنسقاً عاماً لـ «الحركة المصرية للتغيير» (كفاية).

والصُّعوبة الأخيرة في الكتابة عن المسيري، إنسانية/ شخصيّة فقد

ربطتني بالرجل علاقة شخصية وثيقة، ورأيته عن قُرب وتحاورتُ معه كثيراً، وهو ما يجعل قُدرتي على التعامل المحايد مع مشروعه الفكري منطوياً على مشقَّة حقيقية، لكنني في الحقيقة اتَّخذتُ موقع الناقد لأفكاره في مواقف كثيرة وتكشَّفت مساحات الخلاف بيننا في موضوعات عديدة معرفية وسياسية.

وهذا الكتاب لا يطمح إلى الإحاطة بحياة المسيري ومشروعه (وإن كُنت أعتقد أنني ـ إن شاء الله ـ سأقوم بذلك يوماً ما)، ولكنه يطمح إلى استكشاف ـ مُجرد استكشاف ـ هذا العالِم الرَّحب وتقديم صورة عنه للقارئ.

ممدوح الشيخ
قويسنا ـ مصر